فانَّ المرصد الڤاتيكاني شاهد عياني على ما يبذلهُ البابا الحالي في جانب العلم الفلكي ومن يتصفَّح سجلات الڤاتيكان يتحقَّق انَّ الاحبار الرومانيين نشروا في كل الآونة رايات العلوم وتقدَّموا بها الشعوب الاوربية »

إِرْعَ خرافي إِرْعَ نعاجي

(يوحنا ٢١ : ١٥-١٨)

درس لاهوتي للاب يوسف ديلنسفر مدرّس الاسفار المقدَّسة في كليَّة اقتديس يوسف

ليس في حياة السيد المسيح ساعةٌ اجلّ واخطر من ساعة وقوفهِ بين تلاميذهِ على مقربة من بحيرة جنَّاسر عند تلك المغاور المنقورة في الصخور الشاهقة المشرفة على قيسارية فيلبُّس حيث كانت تنتصب اصنام الامم كأنَّها باسطةٌ ملكها الجائر على ارض الميعاد بل على كل انحاء العمور

فهناكَ وقف عند تلك المناظر المهيبة واراد المقابلة بين ملك الجحيم المتقوّض الزائل وملكهِ الناشئ الثابت الى الابد . فسأل اوَّلاً تلاميذهُ عما يقول فيهِ البشر ولمَّا اوقفهُ على آرائهم وجَّه اليهم بالسؤال عينهِ وطلب منهم ان يكشفوا رأيهم في شخصه الكريم فبادر الى الجواب سمعان بطرس معترفاً بكونهِ هو المسيح ابن الله الحيّ . وكل مسيحي يعلم كيف طوَّب المسيح لسمعان بن يونا ونسب كلامهُ ليس للعم والدم . بل لابيه الذي في السماوات واردف قولهُ بذلك الوعد العجيب الذي ما كان ليخطر في قلب بشر قائلاً : « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي وابواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما حللتهُ على الارض يكون محلولاً في السماوات وكل ما ربطتهُ على الارض يكون مربوطاً في السماوات » (متى ١٦)

ذلك هو وعد السيد المسيح وعدٌ صريحٌ عانيّ امام اثني عشر شاهداً لا يشوبهُ ريب ولا يقيّدهُ حصر لا بل ينطبق مع سوابق أخرى ولواحق رواها الانجيليُّون تثبت هذا الوعد وتؤيدهُ منها قول الرب لبطرس في اوَّل دخوله عليه (يوحنا ١ : ٤٢) : « انت سمعان بن يونا انت تُدعى كيفا الذي تفسيرهُ الصفاة » . وقولهُ لسمعان ايضاً (لوقا ٥ :

١٠) : « لا تخفْ لانك من الآن تكون صائدًا للناس » . وتأكيد المسيح له (لو ٢٢ : ٣٢ـ٣٣) : « انهُ مجاهُ من غربلة الشيطان بصلاته لاجلهِ لئلَّا ينقص ايمانهُ بل يثبت اخوتهُ » . وكذلك كرامة الرب له اذ اعتبرهُ كنفسهِ واعطاهُ ما يفي بهِ حقَّ الجباية عن كليهما دون بقيَّة التلاميذ لمَّا امرهُ ان يصطاد سمكةً يجد في فيها استارًا (متى ١٧ : ٢٤ ـ٢٧) . فليس لعمري في الانجيل الطاهر ما ينقض وعد الرب او يريبهُ او يضعفهُ البتة

فليت شعري أنسي المسيح وعدهُ او بقي اسماً دون جسم او لفظاً فارغًا دون معنًى ؟ معاذ الله ان ننسب الى السيد المسيح الحنث بوعدهِ فانَّ مواعيد الله ثابتة الى الابد ولو سقط منها حرفٌ واحد للحقت بجلاله وصمة النقص تعالى الله عمَّا يقولهُ الكافرون

فمتى اذن قام السيد المسيح بوعدهِ ؟ واين الادلة على انَّ تلك المواعيد خرجت الى حيِّز العمل ؟ أكان ذلك سرًّا او علانيةً ؟ أصرَّح به تصريحاً او سترهُ تحت حجاب المجاز والتلميح ؟ انَّ الجواب على ذلك في الفصل الاخير من انجيل يوحنا الحبيب حيث يُعلن جهارًا بانَّ شهادتهُ شهادة عين ويتَّخذ الله كشاهد على صحة قوله

ففي ذلك الفصل ذكر الانجيلي كيف تبع بطرسَ اخوتهُ لما قصد الصيد في بحيرة طبريَّة ثم ذكر حضور الرب بينهم عند الصبح ومعرفتهم لهُ بعد صيدهم العجيب وتنازلهُ لمشاركتهم في غذائهم حتى قال (يو ٢١ : ١٥ـ١٧) : « فبعد ما تغدَّوا قال يسوع لسمعان بطرس : يا سمعان بن يونا اتحبُّني اكثر من هؤلاء . فقال لهُ : نعم يا رب انت تعلم اني احبك . قال لهُ : ارعَ خرافي . قال لهُ ثانيةً : يا سمعان بن يونا اتحبني . قال لهُ : نعم يا رب انت تعلم اني احبك . قال لهُ : ارعَ نعاجي . قال لهُ ثالثةً : يا سمعان بن يونا اتحبني . فحزن بطرس لانهُ قال لهُ ثالثة أتحبني . فقال لهُ : يا رب انت تعلم كل شيء وانت تعلم اني احبك . فقال لهُ : ارعَ غنمي »

فهذه الآية المجديَّة قد لاحت في سماء الكنيسة كالنجم اللامع والبدر الساطع فاستضاء بنورها كل طالب حقّ لم تُغشَ قلبهُ غشاوة الاهواء . وكثيرًا ما سعى اصحاب السفسطة ان يطمسوا نورها او يحجبوها بسُحب الاوهام فذهبت مساعيهم سُدًى وما افادت غاراتهم الَّا ان يتبيَّن كل عاقل خالٍ من الاغراض ما فيها من القوَّة الالهية التي لا تهدُّ ركنها قوَّة بشريَّة أيَّة كانت

فدعنا نعرض هذه الآية على محكّ الانتقاد ونسبرها بميسار الروية فنبيّن جوهرها الصافي وعنصرها الشريف ثم نستفتي لاستجلاء حقيقة معناها ما كتبهُ آباء الكنيسة لاسيما الشرقيين على اختلاف بلادهم ولغاتهم وازمنتهم ونعقّب ذلك بشهادة الطقوس والرُتب الكنسيَّة والآثار الدينية التي تفسّر هذه الآية وتوضحها باجلى بيان واقوى برهان وتثبت كلُّها بلسان واحد انَّ المسيح خوَّل الرسول بطرس السلطة التامّة على بيعتهِ ليسوسها ويدبّرها ويرعاها كالراعي لخرافهِ والرئيس لمرؤوسيهِ

١ شرح الآية في منطوقها وقرائنها

انَّ الآية التي اوردناها بحرفها الواحد لا تكاد تدع مجالًا للسفسطة والوهم الَّا انَّ نورها ينقد انتقادًا اذا ما لحظتَ دقائقها واعتبرت قرائنها

اولًا لا شكَّ في انَّ السيد المسيح يخاطب بطرس في هذه الآية كما فعل في آية الوعد السابق ذكرها ويخاطبهُ وحدهُ مميّزًا لهُ عن سائر رُسُلهِ اذ يسألهُ عن محبتهِ لشخصه الكريم فوق محبة بقية التلاميذ

ثانيًا ينادي الرب بطرس باسمهِ الخاصّ وباسم ابيه : « يا سمعان بن يونا » كما ناداهُ عند وعدهِ بالرئاسة وكما ناداهُ اولًا لما غيَّر اسمهُ سمعان بكيفا . وفي هذه الآيات الثلاث اشارة واضحة الى انهُ اراد ان يخوّلهُ نعمةً خاصَّة بهِ لا يقاسمهُ بها غيرهُ ألا وهي نعمة السلطان على كنيستهِ كما يظهر بمقابلة هذه الآيات بعضها

ثالثًا ومما يدلُّ على انَّ تقليد المسيح لبطرس الرعاية على كنيستهِ انَّما هو تقليد شخصيّ انَّهُ يكرّرهُ ثلاثًا كما كرَّر بطرس ثلاثًا اقرارهُ بمحبّتهِ . واقرار بطرس كما لا يخفى انَّما كان عن نفسه لا عن اخوته الرسل وان لم يصرّح بذلك تواضعًا بعد سقوطه لئلَّا يفضّل نفسهُ على احد كما فعل فيفشل لكنَّ كلامهُ يشعر بانَّ محبتهُ ليست دون محبَّة غيرهِ . فجزاء لاعترافه بمحبته الشخصية يمنحهُ الرب ايضًا هبةً شخصيَّة اي السلطان المطلق على رعيَّته

رابعًا ويظهر الامر بوضوح اعظم اذا اعتبرت سؤال السيد المسيح لبطرس فمن يا تُرى يتجاسر ان يقول بانَّ الرب عند استعلامهِ عن محبَّة تلميذهِ انَّما سألهُ عن محبة لفيف الرسل وفي الآية ما ينفي ذلك تمامًا وكفى بحزن بطرس على تكرار الرب عليهِ

السؤال عن محبته اذ ظنَّ بانَّ الرب شكَّ في صدق قوله حتى انَّ بطرس استشهد بمعرفة المسيح لكل شيء وبعلمه الالهي. فان كان الامر كذلك والسؤال لبطرس دون غيره أفا كان يجب ايضاً ان يكون الجواب لشخصه دون غيره من الرسل ولولا ذلك لما كانت نسبة وتلاحم بين قول المسيح وقول تلميذه اذ يبوءُ بمحبَّته الشخصية ويُعطى إنعاماً يعمُّ الجميع

خامساً ويستدلّ من هذه الآية ايضاً انَّ السيد المسيح جعل تحت قيادة بطرس كل قطيعه دون استثناء. لانهُ سلَّمهُ غنمهُ وسلَّمهُ خرافهُ ونعاجهُ وفي النصّ اليوناني ثلاثة الفاظ تشمل كل ما يتألف منهُ القطيع اعني الخراف والنعاج والحملان صغيرةً وكبيرة بحيث لا يستطيع احدٌ من المؤمنين ان يخرج عن سلطة بطرس ما لم يرضَ ان يكون خارجاً عن قطيع المسيح

فهذه اللحوظات تتبادر الى فهم كل من يطالع هذا النص خالياً من كل غرض شخصيّ. والبروتستانت انفسهم الذين عادةً ينكرون الحجج التي يستند اليها الكاثوليك في تأييد قضيَّة رئاسة بطرس لا يمكنهم عند شرح هذا المحل الّا الاقرار بمعتقدهم. قال احد زعمائهم الاستاذ هولتمان (Holtzmann:*Hand Comment.*, IV,227): « لا يمكن أن تُفهم هذه الآية في يوحنا عن سلطة مشتركة بين بطرس وبقية الرسل لانَّ هذا الكلام كلهُ شخصي فالمسيح يُعيد الى بطرس ملء السلطة التي خوَّلهُ اياها في انجيل متى (١٦: ١٨—١٩) حيث جعلهُ صخرة البيعة ». ثم يستشهد باقوال البروتستانت فضلاً عن الكاثوليك الذين ارتأوا هذا الرأي كهنغستنبرغ Hengstenberg وڤايس (Weiss). ويردف الكاتب قولهُ هذا بما تعريبهُ: « في آية يوحنا يظهر جلياً بان المسيح يقلّد بطرس ليس فقط شرف الرسالة لكن ايضاً الرعية العامّة على كل خراف المسيح »

وان قال قائل قد خصَّ المسيح بطرس بسؤاله عن محبته ثلاثاً ليمكنهُ فقط من الوفاء عن نكرانه المثلَّث في وقت الآلام وليس المقصود من ذلك تقليد سلطة ما

نردّ على هذا الاعتراض من وجوه متعددة: (اولاً) انَّ بطرس كان نال الغفران عن خطيئته حالاً بعد سقوطه لمّا نظر اليه الرب في بيت قيافا فخرج من الدار وبكى بكاء مرًّا. ثم ارسل السيد المسيح النساء الصالحات ليبشرنَ الرسل بقيامته ولاسيما

بطرس لا بل ظهر لهُ خصوصاً بعد قيامته كما يصرّح به لوقا (٢٤ : ٣٤) . ولما ظهر الرب في العلّية لجميع الرسل كان شمامهم سلامهُ واعطاهم الروح القدس وكل ذلك يدلُّ على انَّ بطرس كان عاد الى نعمة ربّه وصُفح نكرانهُ . (ثانياً) لو كان المسيح لم يقصد من سؤاله الى رسوله سوى المسامحة عن اثمه لكان اكتفى بان يسألهُ فقط من محبّته لهُ دون ان يطلب منهُ أيجبهُ اكثر من بقيّة الرسل ثم كان قابل جواب بطرس بالسكوت . والحال نرى المسيح يردف كل جواب من فم بطرس بمجازاة واضحة وتخويل نعمة سنيّة وهي رعية الخراف ورعية النعاج التي لم نجد لها شبيهاً في كلامه الى بقية الرسل

وقد يعترض البعض على الحجّة التي يستمدّها الكاثوليك من قول المسيح لبطرس « ارعَ خرافي » بزعمهم ان رعاية الخراف انما تدلّ هنا فقط على الارشاد واعطاء المشورة والتحذير كما يفعل الاخ باخيه والصديق بصديقه وانَّ اللفظة اليونانية ποιμαίνειν التي في آية يوحنا لا يُقصَد بها غير المشورة والارشاد والتهذيب امّا السلطة الممنوحة لبطرس فكالسلطة المعطاة للرسل لمّا قال لهم الرب في متى (١٨ : ١٨) : « مهما حللتم على الارض يكون محلولاً في السماوات الخ » وكقولهِ لهم بعد قيامتهِ (يوحنا ٢٠ : ٢١ — ٢٣) : « كما ارسلني الآب انا ارسلكم . . . اقبلوا الروح القدس . الذين تغفرون لهم خطاياهم تكون مغفورة لهم ومن امسكتم خطاياهم تُمسك لهم » . وخلاصة القول ليس لبطرس شيء يتميّزهُ عن اخوته غير كونه الاوّل بالشرف ليس الّا

نجيب على هذا المشكل (اوّلاً) ان بطرس من حيث كان احد رسل المسيح قد نال كل ما نالوهُ من النعم اجمالاً . وليس العكس بالعكس فانهُ اصاب من الامتيازات ما لم يُصبهُ احد منهم . ويظهر ذلك من مواعيد المسيح الخصوصية لهُ في متى (١٦ : ١٨ — ١٩) حيث اكّد لهُ انهُ يجعلهُ صخرةً يبني عليها بيعتهُ وانهُ يعطيهِ مفاتيح ملكوت السماوات وهذا لم يَعِدْ بهِ غيرهُ من التلاميذ وان شركهم بنعمة حلّ الخطايا او ربطها . نجيب (ثانياً) ان هذه المواعيد ليست امتيازات شرفية فقط بل تنبئ بمنح سلطة حقيقيّة في التعليم والتدبير كسلطة الاب على ابنائهِ والرئيس على مرؤوسيهِ . وهو امرٌ يتضح لكل معتبر لاقوال السيد المسيح واعمالهِ فتميزهُ المتواتر لبطرس بين بقيّة تلاميذهِ لا يمكن تعليلهُ الّا بالسلطة التي اعطاها لهذا الرسول . وقد عرف ذلك الرسل

اخوتهُ فتراهم بعد صعود الرب لا يقدمون على عملٍ الَّا تحت رئاسته فهو المتقدّم في علّيّة صهيون وهو المتولي لانتخاب خلف ليوداس وهو المدافع عن حرمة التلاميذ امام اليهود وهو الواقف بازاء رؤساء الكهنة في مجمعهم وهو المدبّر لتقسيم الحسنات بين المؤمنين وهو المعاقب للمرائين اصحاب الكذب والخداع كحنانيا وسفيرة وهو الذي يحرم سيمون الساحر على يدهِ تجري المعجزات في الهيكل وخارجاً عنهُ حتى انَّ ظلَّهُ يشفي المرضى هو الذي يبشر الامم قبل غيرهِ ويتفقَّد شؤون المؤمنين ويمنحهم الروح القدس في السامرة وغيرها هو المتصدّر في مجمع اورشليم. فيا لله ايستطيع ان يقول احد انَّ كلّ هذه الاعمال لا تدلُّ على سلطة حقيقيَّة او يقول انَّ بطرس ادَّعى بهذه السلطة متعدّيًا في ذلك حقوقهُ طمعاً في الرئاسة دون ان يحتجَّ عليهِ احد من التلاميذ وبرقنهُ عند طورهِ. نجيب (ثالثاً) انهُ لا يصحّ قول الزاعمين بانَّ لفظة الرعاية في آية يوحنا «ارعَ خرافي» لا تدلُّ على السلطة فانَّ اللفظة اليونانية ποίμαινε في الاسفار المقدسة تقابل اللفظة العبرانية רעה وهذه الكلمة الموافقة للعربية «رعى» تدلُّ في الكتاب المقدَّس على ملء السلطة وكمال الامر ولو شئنا لأتينا بالشواهد العديدة المثبتة لقولنا. مثالهُ قول اسباط اسرائيل لداود بعد موت شاول (٢ ملوك ٥: ٢): «اذ كان شاول علينا ملكًا امسِ فما قبل كنت انت تُخرج وتدخل اسرائيل وقد قال لك الرب انت ترعى (תרעה ποίμανεις) شعبي اسرائيل» فالرعاية والملك هنا كما ترى شيء واحد. ومثلهُ في اشعيا (٤٤: ٢٨) قول الرب لكورش ملك فارس: «انا القائل لكورش انت راعيّ (רעי) انت متمم كل ما اشاء» فبديهيٌّ انَّ كورش كان متوليًا سلطةً حقيقيةً ولم يُقِمهُ الله فقط لرتبة شرفيَّة فالمقصود اذن من قوله انت راعيّ اي انت المقلَّد السلطة باسمي. والآيات كهذه عديدة (كسفر العدد ٢٧: ١٦ و٢ ملوك ٧: ٧ و٢٤: ١٧ الخ) لا بل تجد في الاسفار الالهيَّة لفظة الرعاية مكرَّرة الدلالة على سلطانهِ تعالى المطلق في المخلوقات. كقول الملك داود في الزبور (٢٢: ١-٤) يصف تدبير الله وعنايتهُ: «الربُّ راعيّ فلا يعوزني شيء. في مراعٍ خصبة يقبلني ومياه الراحة يوردني يردُّ نفسي ويهديني الى سُبُل البرّ الخ» وكقوله ايضاً (٧٨: ٥٢): «سيَّر الرب شعبهُ كالغنم وساقهم مثل القطيع في البريَّة وهداهم في طمأنينة فلم يرتاعوا... وادخلهم تخوم قدسهِ... وطرد من وجوههم الامم». فمن لا يرى في هذه الآيات الامرة والسياسة

والقيادة والتدبير وكلُّ ذلك قد رمز اليهِ بالرعية فكيف يقال انَّ المسيح لم يمنح رسولهُ بطرس غير شرف عرضيّ بقوله لهُ « ارعَ خرافي »

ولو طلب منَّا المعترض زيادة برهان لبيَّنا لهُ الامر من وجه آخر اعني رتبة المسيح نفسهِ التي اتَّفق العهدان القديم والحديث على وصفها بصورة الرعاية للأغنام. امَّا العهد القديم فقول حزقيال في الفصل ٣٤ وكلهُ من درر الكلام في المقابلة بين رعاة اسرائيل المنافقين والراعي المرسل لخلاص شعبهِ الى ان يقول وفمٍ درُّهُ من قول:

« هكذا قال السيد الرب هاءنذا انشد غنمي وافتقدها انا كما يتفقد الراعي قطيعهُ يوم يكون في وسط غنمهِ المنتشرة كذلك افتقد انا غنمي وأُنقذُها من جميع المواضع التي شُتِّتت فيها يوم الغمام والضباب وأُخرجها من بين الشعوب واجمعها من الاراضي وآتي بها الى ارضها وارعاها على جبال اسرائيل وفي الاودية وفي جميع مساكن الارض. في مرعى صالح ارعاها وفي جبال اسرائيل العالية تكون حظيرتها. هناك تربض في حظيرة صالحة وترعى في مرعى دسم على جبال اسرائيل. انا ارعى غنمي واربضها يقول السيد الرب فأتطلَّب المفقودة واردُّ الشاردة واجبرُ المكسورة وأُقوي الضعيفة واحفظُ السمينة والقويَّة وارعاها بعدلٍ »

وليس اقلَّ منهُ وضوحاً ولا ادنى شأناً في العهد الجديد كلام السيد المسيح عن نفسهِ حيث يقول (يو ١٠: ١١ — ١٧): « انا الراعي الصالح. الراعي الصالح يبذل نفسهُ عن الخراف... انا اعرف خاصَّتي وخاصَّتي تعرفني كما انَّ الآب يعرفني وانا اعرف الآب وابذل نفسي عن الخراف ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة فينبغي ان آتي بها ايضاً وستسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد »

فهذه الرعاية سلطة حقيقيَّة تامَّة للسيد المسيح من ابيهِ تشمل الامم والشعوب كلها فيرعاها بالرحمة والحزم إنْ انقادت الى صوتهِ ويرعاها بقضيب من حديد (مزمور ٢) ان ابت الخضوع. ولمَّا كان هذا الراعي لا يبقى على الارض منظوراً وكانت رعيَّتهُ من البشر المنظورين اقتضى الامر ان يعهد بتدبير رعيَّتهِ الى من ينوب عنهُ فبقولهِ لبطرس « ارعَ خرافي » اقامهُ نائبهُ في رعاية هذه الاغنام الناطقة وجعل في يدهِ قيادتها ليرعاها في المراعي الخصبة ويبعدها عن المتجمات الوخيمة ويردَّ عنها

غارات الذئاب الكاسرة الى غير ذلك مما لا يقوم بغير سلطة تامة وتدبير تام وتعليم صادق معصوم من الضلال

وليست الرعاية كناية عن السلطة في الاسفار المقدسة وحدها او عند بني اسرائيل فقط فان آداب الامم كلها قد ألفت تشبيه السلطة والامر والرئاسة برعية القطعان فانَّ اليونان وهم اعلم من غيرهم بمعاني الكلام قد كرَّروا ذلك في قصائدهم ألا ترى اوميروس الشاعر في كتاب الالياذة (ك ١ بيت ٢٦٣) يدعو ملوك اليونان المجتمعين لحرب « رُعاة الامم » (ποιμένες λαῶν) ومثل ذلك في شعر سوفوقليس واوريبيدس كثير. وقد شاع هذا الاصطلاح قبل اليونان عند الاشوريين. فقد جاء مثلاً في صفيحة وُصفت فيها اعمال الملك سرغون الاوَّل عن لسان صاحب الاثر انهُ « حبيب الآلهة والراعي مختار الالهَين اشور ومردوخ » ومثل ذلك في صفيحة تجلت فلاسر الاوَّل: « انهُ هو الذي دعاهُ اشور الاله الاعظم ليرعى بلادهُ بكل استقامة » فكل هذه الشواهد لا تبقي ريباً في معنى قول المسيح لبطرس « ارعَ خرافي » اعني انهُ هو الراعي الكبير الذي اقامهُ الآب وارسلهُ الى العالم ليرعى الامم قد اتَّخذ من مثلهُ في هذه الوظيفة في اعين البشر بينما هو يحتجب عن العيان ويقوم بهذه الرعاية في السماء بنوع غير منظور ويرشد بالهامهِ ونعته الراعي المنظور الذي ينوب عنهُ في الارض

ولا يقولنَّ قائل « اننا نسلم بان بطرس قد أُعطي بقوَّة هذه الآية ملء السلطان على الكنيسة ولكن لا تثبت هذه الآية انَّ ذلك الامتياز يتناول الاحبار الرومانيين » فانَّ هذا الرأي باطل لا اسَّ لهُ. وذلك لانَّ التطبيع الذي انشأهُ المسيح ليس هو قطيعاً زائلاً او جماعة زمنيَّة بل هو جسمٌ ادبيٌّ يبقى الى منتهى الاجيال كما صرَّح بهِ السيد المسيح لتلاميذهِ مراراً متوالية. فلا بُدَّ لهُ اذن من راعٍ في كل آونة وجودهِ الى آخر ساعة من كيانهِ. وبطرس من حيث هو شخص خاصٌّ كاحد افراد البشر لا يعيش الى الابد فلا بُدَّ اذن من القول بانَّ بطرس لم يُمنح نعمة الرعاية ليباشرها بنفسهِ فقط بل نالها كرأس سلسلة ترتبط حلقاتها دون انفصام كما ينال احد الملوك سلطاناً على أمَّة فيبسط عليها ملكهُ هو اوَّلاً ثم خلفاؤهُ من بعدهِ سواء كانوا اولادهُ او ولاة عهدهِ او ورثة ملكهِ على طريقة شرعيَّة جرى عليها الاتفاق

وكذلك يؤخذ من كلام المسيح الى بطرس انهُ اساس بناء الكنيسة الحيّ يجمع

كلستها ويبعد عنها كل ما يضعضع اركانها او يفرّق بنيانهـا ابدًا وكذلك لا يتمُّ الّا بدوام ذلك الاساس الادبيّ الحيّ . فيترتّب على ذلك ان الاسـاس ليس هو منوطاً بشخص معروف بل بمقام ذلك الشخص وبرتبته ليبقى البنيان على مدى الدوران طالما تبقى الرتبة ويتولّى امرها انسان

٢ الآثار اليعبّة القديمة

افادنا القسم الاوّل حقيقـة الرئاسة البطرسية من فحوى كلام الرب الى رسوله ومن امره لهُ بان يرعى خرافهُ . بقي علينا أن نبحث عن رأي الكنيسة في معنى هذه الآية أفيتّفق الآباء في تفسيرها كما فسّرناها وهل تنطبق على ذلك الجامع المقدّسة وطقوس الكنيسة على اختلافها . فان كان الامر كما رأينا وثبت ان التقليـد الرسولي يجد في قوله تعالى « ارعَ خرافي » سنداً لسلطة بطرس وخلفائه على الكنيسـة صحصح الحقّ ولم يبق في الامر ريب

انَّ آباء الكنيسة سواء كان في مياسرهم او في تفاسيرهم على الانجيل يوحنّا ذكروا الآية التي نحن في صددها وليس بينهم واحد يخالف الشرح الذي قدّمناهُ بل كلهم الغربيين والشرقيين يذهبون الى انَّ المسيح بموجب هذه الكلمات قلّد بطرس السلطة التامّة على كنيستهِ في التعليم والتدبير ولا حاجة بان نتّسع في ذكر اقوال آباء الكنيسة اللاتينيّة الذين صرّحوا بالامر تصريحًا ينفي كل شكّ . قال القديس اوغسطينوس في ردّهِ على فوستوس (Migne: PP. LL., XLII, 445) : « قد أقيم بطرس راعياً على الكنيسة كما أقيم موسى رئيساً على جماعة اليهود » . ومن المعلوم انَّ رئاسة موسى على شعب الله لم تكن رئاسة شرف فقط بل سلطـة قضاء وتدبير وتعليم فلا بُدَّ اذن من التسليم بانَّ رئاسة بطرس كانت مثلها .

ومن ابدع ما قيل في ذلك ما كتبهُ القديس برنردس الى تلميذهِ البابا اوجانيوس الثاني وقد جمع في قوله كثيرًا من اقوال الاباء قبلهُ : « انت من انت ؟ انت الكاهن العظيم والحبر الاعظم انت إمام الاساقفة ووريث الرسل . انت الراعي الاوّل كهابيل . انت ربّان السفينة كنوح وابو الاباء كابراهيم . رتبتُك كرتبة ملكيصادق ومقامك كمقام هارون . لك رئاسة موسى الكليم وقضاء صموئيل وسلطان بطرس ومسحةُ

المسيح . انت الذي قُلدت مفاتيح السماء ووُكلتْ اليك الاغنام الناطقة . نعم انَّ غيرك قد قُيموا ايضاً لحجابة الملكوت ولرعاية القطيع الكنسيّ لكنَّ درجتك ارفع واوسع من درجتهم . قد عُهد اليهم كل واحد بقطيع خاصّ امَّا انت فقد عُهد اليك وحدك بان ترعى الجميع ليس الغنم فقط بل الرعاة ايضاً لانك راعي الرعاة ولك وحدك الرب قال دون غيرك من الاساقفة والرسل قولاً شاملاً . مطلقاً : « ان احببتني يا بطرس فارعَ خرافي » فلم يقل ارعَ خراف بلدٍ ما او امّة ما او مملكة ما بل خرافي دون تقسيم ولا افراز ولا حصر » فنعم القول وحبّذا القائل

وليس لآباء الكنيسة الشرقيّة رأي مخالف للرأي السابق فاسمع قول يوحنّا الذهبي الفم في ميمره الثامن والثمانين على يوحنا (Migné. PP. GG, LIX. 478-9) فهناك كلام مستفيض لهذا الخطب المنوَّه عن رئاسة بطرس . نقلنا خلاصتهُ في المشرة (٥ : ١٣٤) وممَّا قال . ما تعريبهُ : « ما للرب قال لبطرس « ارعَ خرافي » وضرب الصفح عن بقيَّة الرسل ؟ ليس ذلك الَّا لانَّ بطرس كان رسول المسيح المصطفى ولسان التلامذة ورأس الفئة الرسوليَّة . . . وانَّما يقول لهُ : « ان كنت تحبني كن رئيساً على اخوتك وبيّن صدق محبَّتك نحوي بحسن تدبيرهم وابذل عن غنمي نفساً قلتَ لي انك تحبها فدايَ » . فمن لا يرى انَّ الذهبيّ الفم فهم مثلنا انَّ رعاية الخراف هي رئاسة حقيقيَّة وسلطة ثابتة حتى على الرسل والتلاميذ

وليس هذا الميمر الوحيد الذي اكّد فيهِ فمُ الذهب رعاية بطرس وخلفائهِ على الكنيسة جمعاء . فانَّهُ في ميمرهِ الحادي والخمسين على متى في شرح مثل العشرة الالاف وزنة وفي ميمرهِ السابع والخمسين عليهِ في بيان قول المسيح الى بطرس « انت الصخرة » يعود الى ذكر ما نالهُ هامة الرسل من السلطان لرعية قطيع كنيستهِ

ومثل القمر القسطنطيني كذلك القمر القيصريّ باسيليوس (Migne, PP. GG. XXXI, 1408) يؤكد سلطة بطرس الرعائيَّة على كنيسة المسيح . ففي رسومهِ الرهبانية الفصل الثاني العدد الرابع يذكر ما يجب على الرهبان من الطاعة لرئيسهم « الذي يمثل لهم شخص المسيح ذاك المتوسط بين الله والبشر ليخلص الذين يخضعون لوصاياه » ثم يردف قولهُ بما تعريبهُ : « وقد تعلّمنا هذا من السيد المسيح نفسه الذي اقام من بعدهِ بطرس راعياً لكنيسته حيث قال لهُ : « يا بطرس اتحبّني اكثر من هؤلاء ؟

ارعَ خرافي ». فاوضح باسيليوس بهذه الشهادة انَّ بطرس تولَّى كنيسة المسيح من بعده بقوَّة هذه الآية ولم يستثنِ من رئاسته على الكنيسة احدًا

ومثلهما صراحةً وبيانًا معاصرهما كيرلس الاورشليميّ في كتاب المعتقدات (Migne, *ib.*, XXX, 407, 855, 998) الذي يشير غير مرَّة الى رئاسة بطرس العموميَّة لانَّ الرب امره برعية اغنامه الناطقة (τὰ νοητὰ πρόβατα) ويذكر توبتهُ بعد خطيئتهِ فيقول انهُ لم يفقد شيئًا من امتيازاتهِ بل صار هامة الرسل العليا ورئيسهم الاوَّل (κορυφαιότατος καὶ πρωτοστάτης τῶν ἀποστόλων) وحاجب الملكوت السماوي (τῆς βασιλείας τῶν οὐρανῶν κλειδοῦχος)

ومن معاصري هؤلاء الآباء في القرن الرابع ابيفانيوس اسقف قبرس الذي في كتاب الهرطقات (الهرطقة ٥٩) يتهض همَّة الخطأة ويحضُّهم على الانابة الله ويعرض عليهم مثال هامة الرسل الذي استحقَّ بعد توبته « ان يكون اساسًا للكنيسة من كل وجه » (ἐφ' ᾧ θεμελίωται ἡ Ἐκκλησία κατὰ πάντα τρόπον) ثم ذكر كلام الرب الى بطرس في حياته ثم كلامهُ لهُ بعد قيامته بيانًا لهذه الرئاسة الكليَّة (Migne, PP. GG., XLI, 1030)

وجاء في اعمال القديس استيريوس الاماسيّ (Migne, XL, 282) في خطبته عن الرسولين بطرس وبولس: « انَّ الخلاص اذ اراد بتجسُّده ان يقدِّس الجنس البشري اوصى بكنيسته المنبثَّة في كل جهات المعمور لبطرس كوديعة خاصَّة وكوراثة اذ سألهُ ثلاثًا أتحبُّني. وأما رأى المسيح انَّ تلميذهُ اجاب بنشاط على سؤاله الثالث سلَّم اليه ايضًا ثلاثًا تدبير العالم وجعلهُ راعيًا واحدًا على رعيَّة واحدة (ὡς μίαν ἀγέλην εἰς ποιμήν) لمَّا اسمعهُ هذه الكلمات « ارعَ خرافي ». وكاد يرفع الى مقامه الرفيع تلميذه الامين اذ جعلهُ ابًا وراعيًا ومعلِّمًا للذين كانوا مقبلين الى الايمان ». وهذا الكلام اوضح من ان يحتاج الى تفسير وقد ردَّدهُ القديس في هذه الخطبة على وجوه متنوعة تُزيل كلَّ الشبهات في بيان مقصوده

ولثاودوريطس اسقف قورش خطبة في المحبة الالهيَّة والمحبة البشريَّة كلُّها محاسن بنى قسمًا منها على قول بطرس مجيبًا على سؤال ربِّه « اتحبُّني اكثر من هؤلاء » وعلى قوله تعالى لهُ: « ارعَ خرافي » (Migne, LXXXII, 1507) لا يمكننا ان ننقل

عنهـا غير فقرات قليلة. قال من لسان الرب : « ان كنت تحبني يا بطرس فاعلم اني لست في حاجة الى شيء او الى احد ولكن أقبل منـك كأنهُ لنفسي كل ما تظهره من العناية في رعاية اغنامي. فكلُّ ما وجدتهُ فيَّ تحوك من التدبير والحبّ فاعلن بهِ نحو رفقتك وارعهُم كما لرعاك واملك عليهم كما املك عليك. بهذا تفي بشكرك لي... فكن لهم سنداً وشدّد ازرهم وقوّم ميلهم وانهض ضعفهم... والحق يقال انَّ بطرس قد اضحى ركناً للايمان غير متزعزع وكان دليلاً امينًا للعالم كله فنمهُ من الضلال بقوّة كلمة الرب القائل لهُ : « ارعَ خرافي »

ولولا خوفنا من ملل القرّاء لأتينا بشهادات عديدة غير السابقة كتاوفيلكتس في شرحه على يوحنا (Migne, CXXIV, 310) وافتيميوس من كتبة القرن التاسع في تفسير هذا الفصل عينه (Migne, CXXIX, 1495). وهذه شواهد لبعض كتبة الكنيسة السريانية. قال ثاودورس المصيصي (ed. Chabot, p. 407) في آية يوحنا المذكورة انَّ الرب بقولهِ لبطرس اوّلاً « ارعَ حملاني » (ܪܥܝ ܠܐܡܪܝ) سألهُ كلَّ المؤمنين به ليسند ايمانهم ويثبت ضعفهم لانَّ ايمانهم ليس بثابت. ثم قال لهُ بعد اعترافه الثاني بمحبّته « ارعَ خرافي » (ܪܥܝ ܠܥܢܝ) فاراد انهُ يسلمهُ ايضاً الكاملين كالرسل والرعاة والكهنة ليخدموا لهُ. ثم بعد سؤاله الثالث اياهُ قال له : « ارعَ نعاجي » (ܪܥܝ ܠܥܡܝ) حتى يدلَّ بذلك على انه يسلمه كل الخلائق الناطقة حتى اضعفها كالنساء الضعيفات من بتولات طاهرات ومقيّدات بالزواج فانَّ الرب لم يستثنِ احداً من سلطة بطرس لا من الخاصّة ولا العامّة بل جعله رئيساً على الجميع مطلقاً »

وقال اليًّا اسقف الانبار امام النساطرة في زمانهِ في القرن العاشر : « قد صار بطرس اساس الايمان وهامة الرسل اخوتهِ وبنّاء الكنيسة المقدّسة وقد فاز بهذه الامور الثلثة اذ نال مقاليد العلويّات والسفليّات اعني السماء والارض وملكهما دلالةً على سلطتهِ المثلثة وقد أُعطي ايضاً رعاية القطيع الناطق في كل اقسامهِ النعاج والخراف والكباش وفقاً لامر الرب »

ومثلهُ ابو الفرج البغدادي المعروف بابن الطيّب النسطوري : « يريد المسيح بالحملان والكباش والنعاج جميع اصناف المؤمنين من الرجال والنساء. فقال لشمعون ان كنت تحبني المحبّة التامّة الكاملة فأفِدْ مواهبي وعطاياي وعلمي وذخائر سنّتي

للمؤمنين بي. وهذه وصيّتي اليك بخلاف كل وصيّة ان تفيد الناس كافّة علم الحقّ وسنن البشارة الانجيليّة الموصلة لهم الى الملكوت السماويّ» ... ثم قال ايضاً: «ارعَ لي» هو بمعنى كن نائباً عني ويقول «كباشي وخرافي ونعاجي» يعني كافّة المؤمنين والمؤمنات الرأس منهم والوسط والدون»

فنقف عند هذا الحدّ لئلّا نورث قرّاءنا الملل بوفرة الشهادات التي ترمي كلّها الى غرض واحد ومعنًى واحد اعني الرئاسة التامّة على الكنيسة في كل رتبها وطبقاتها

على أنّنا لا نستطيع ان نضرب صفحًا عن شواهد أخرى تؤيد هذه القضيّة وقد اعتاد اللاهوتيون ان يتّخذوها في بيان المعتقدات كحجّة قاطعة تزيد الصلوات الطقسيّة فانّ هذه الصلوات تتضمّن لباب تعاليم الرسل واقوال الآباء. وهي في الموضوع الذي يشغلنا عديدة جدًّا نكتفي بالقليل منها خوفًا من الاسهاب

فمما جاء في الليتورجيّة النسطوريّة وهي كما لا يخفى من اقدم الليتورجيّات المعروفة في عهدنا اذ يرقيها العلماء الاثبات الى قرون النصرانيّة الاولى قولهم في صلوات عيد القديسين الرسولين بطرس وبولس:

«طوباك يا سمعان بن يونا هامة الرسل وبكرهم فانّ سيّدك قد اصطفاك واعطاك مقاليد المنازل العلويّة لتفتح بابها للمرتدّين. قال لك الرب ثلاثًا: ارعَ خرافي ارعَ نعاجي ارعَ كباشي التي افتديتها بدمي فاني جاعلك قيّمًا على ملكوت السماوات. فتولّ الامور ودبّرها بحكمة كقيرمان عاقل ورزّع بفطنة كنوزي الروحيّة... ارعَ واحفظ الخراف المندّيّة بالصليب بتيقّظ واجتهاد ومحبّة وكمال وصدق صُنْها من الذئاب الخاطفة ومن ابناء الضلال بالقوّة التي أُعطيتها من الروح القدس»

وورد في الليتورجيّة الملكويّة عدّة نصوص تبيّن صريحًا رئاسة بطرس على الكنيسة كلها حتى الرسل. وقد جمع هذه الشواهد الراهب البنيّ الشهير الاب تنديني (Tondini) فننقل عنهُ هذه الشهادة وحدها (ص ٢٣) الواردة في فرض عيد الرسولين بطرس وبولس: «انّك يا بطرس قد ائتمنت رعاية قطيع المسيح لكونك الافضل والاعظم (ὡς πανάριστος)... انت راعي جميع الرسل بالحقّ المعطى لك من الله»

والكنيسة اليونانيّة في هذا المعتقد لا تخالف غيرها من الكنائس بل تعدّدت في

طقوسها الاوصاف المبنية برئاسة هامة الرسل حتى لو جُمعت لتألّف منها كتاب واسع. امّا نعتها لهُ بالراعي الكنيسة ولكلّ المؤمنين دون اختلاف بين رئيس ومرؤوس بين رسول وموعوظ بين راعٍ وقطيع فاكثر من ان يُحصى. (راجع مثلًا مجموع تسابيح الكنيسة اليونانية للكردينال پترا (J. B. Pitra: *Hymnographie grecque*)

ولدينا شاهد آخر على معتقد الكنيسة واستنادها على كلمة الرب لنسبة الرئاسة العظمى لبطرس في الآثار القديمة والعاديات النصرانيّة التي تتراوح بين القرن الثاني والسادس للمسيح. لكنّ الشرق قد سبق الى وصف تلك الآثار في مقالة جميلة للاب جلابرت نُشرت في اعداد السنة السادسة (ص ٥٧٦—٥٨٥) فلتُراجع

فكل صواب اذن قد حكمت الكنيسة في مجامعها مرارًا بانّ بطرس بقوّة الآية المرويّة في يوحنّا قد قُلد من السلطان على الكنيسة وجميع ابنائها وكان خلفاء بطرس من بعده على كرسيّه الرومانيّ. قال المجمع الفلورنتيني بعد اتحاد الكنيستين اللاتينيّة واليونانيّة: «نحكم بانّ للكرسي الرسولي المقدّس وللحبر الرومانيّ التقدّم على جميع الاساقفة في معمور الارض وهو خليفة الطوباويّ بطرس هامة الرسل ونائب المسيح الحقيقي ورأس الكنيسة كلها وابو المسيحيين اجمعين ومعلمهم وبان السيد المسيح اعطاهُ في شخص الطوباوي بطرس سلطانًا مطلقًا تامًّا لرعاية الكنيسة وتدبيرها وسياستها جميعها كما هو مذكور في اعمال المجامع وفي القوانين المقدّسة

فلا يبقى لنا في ختام فصلنا هذا الّا ان نشكر السيّد المسيح ربّ الارباب وملك الملوك الذي لم يترك كنيستهُ كجسم بلا راس وكداز بلا ربّ بيت وسفينة بلا ربّان ودولة بلا ملك. فيا لله ماذا كان حلّ بالكنيسة لو أُهملت الى تدبير رؤوس متعدّدين ورُعاة مستقلّين لا يضمّ كلمتهم رأس واحد ولا يجمع شتاتهم راعٍ فرد. نعم انّنا نعلم انّ السيّد المسيح هو رأس الكنيسة الاعلى واساسها الاول قد وعد بانهُ يحميها ويدبّرها بعنايته الى منتهى الدهور الّا انهُ انشأ جماعة بشريّة منظورة تتصرّف في اعمالها ومشروعاتها وادارة امورها بين البشر المنظورين وتناهضها القوّات المنظورة لتصدّها عن غايتها اي خلاص النفوس فاقتضى الامر أن يكون لها ما عدا الراعي غير المنظور راعٍ منظور قد عرفناهُ من الانجيل الطاهر واتّفقت الآباء والكنائس الحاضّة والآثار القديمة في الدلالة عليه اعني بطرس الرسول. وليس بطرس في هذا الامتياز

شخصاً منفرداً بل ممثلاً لمن يجلسون بعده على كرسيّه الروماني اذ الرعيّة محتاجة الى راعٍ يدبّرها بعد مماته وليس راعٍ آخر غير خلفائه من بعده . واسم هذا الراعي الجليل في يومنا هذا بيوس العاشر وكل من وقف على اعماله منذ جلوسه على كرسيّ الخلافة البطرسيّة يقرّ علناً بانهُ افضل خلف لأفضل سلف لا يزال به بطرس حيًّا في الكنيسة . متّعنا الله برعايته سنين طويلة وقادنا على يده الى المراعي الخصبة ثم الى جنان الخلد امين اللهم امين

تحيّة من الارز

في اليوبيل البابوي الكهنوتي الخمسيني

للاخ ب . ب . الراهب الماروني اللبناني

يا ارز مالك فوق السحب مرتفعا ... كأن رأسكَ في الجوزاء قد طلعا
بسطت اغصانك الخضراء عن جزلٍ ... والشمس من نورها حاكت لها الخلعا
والريحُ غنّت على عيدانها طرباً ... وصوت تنغيمها في الغرب قد سُمعا
يفوح من أرَج الاغصان اذ رقصت ... نشرٌ ذكيٌ الشذا من قبلُ ما سطعا
مالك فوق ذرى لبنان في غيرٍ ... عهدي بمثلك لا يستحسن البدعا ؟
— أهدي السلام الى رأس الكنيسة من ... ضياء يوبيله في الجو قد اما
تزهو احتفاء به الاكوان قاطبةً ... ويلهج الغرب في ذكراهُ مندفعا
هل يبقى لبناننا في الصمت معتزلاً ... ومن مشارقهِ نرز الهدى طلعا ؟
— يأبى بنو شرقنا ألا مشاركة ... م الغرب بعيدِ أبٍ في حبهِ طُبعا
حبرٌ عظيمٌ على كرسيّ بطرس قد ... بدا ومن حولهِ الاحبارَ قد جمعا
تعنو الرؤوس ازاء العرش خاضعةً ... لنائب الله مَن كلٌّ لهُ خضعا
اقامهُ الله رأساً في كنيستهِ ... يرعى الرعايا ويغذي قومهُ الورعا
يدعو الخراف بصوتٍ طاب مسمعهُ ... فصوتهُ باتّباع الحق قد صدعا
إنّا مطيعون هذا الرأس عن قدمٍ ... نعاهد النفسَ ان تبقى لهُ تبعا